على مَرّ الزمن

ميسون حيدر بسيسو

تجتاحني ذكريات كثيرة ... بعضها وثقته الذاكرة والبعض الآخر بات في طي النسيان ... ولا أخالني أذكر شيئاً من سجل حياتي قبل ولوجي الصرح العلمي الذي عشقت وأحببت وبه تعلقت .. «مدرستي». كانت محطتي الأولى المرحلة الابتدائية، وأصف نفسي تلك الطالبة الجميلة المفعمة بالحياة والحيوية، دخلت المدرسة وكنت نعم الطالبة، فقد وُصِفت مرارا بأنني الطالبة المثالية والمجتهدة والمواظبة والهادئة.

كان لديّ قلق دائم من المدرسة ومن العلامات، وكنت أفكر دائماً في التفوق، وكيفية تحصيل العلامات على الرغم من حداثة سني ... وكانت أكثر اللحظات خوفاً لدي حين تدق الامتحانات ناقوس الخطر ... فأبدأ بالارتجاف وأخاف أن تفلت من ذهني معلومة ما.

وقد حظيت بنصيب وافر من اهتمام معلماتي، فلطالما أجلسنني في المقعد الأول، وأذكر في هذا المقام معلمة اللغة الإنجليزية التي كانت تميزني عن بقية الطالبات باهتمامها ورعايتها .. وكذلك معلمة الرياضيات التي كانت تردد عبارتها الشهيرة دائما «خسارة ميسون تكون معكم في الصف»، وذلك لشعورها بتميزي عن بقية الطالبات. هاتان معلمتان أرّختهما في سجل ذكراتي في المرحلة الابتدائية، فلا أكاد أنسى أي عبارة من عباراتهما .. وتعلن المرحلة الابتدائية إغلاق أبوابها، وأنا أقفز إلى المرحلة الإعدادية وقد حققت النجاح والتفوق والتميز.

انتقلت إلى المرحلة الإعدادية بخطى واثقة لا يؤرقني سوى التفوق والنجاح .. ولكني أبغض ذاكرتي حين تذكرني ببعض التفاصيل التي نغصت عليّ حياتي ... فها هي معلمة الرياضيات التي كنت أحبها تستبدل وتأتي أخرى لتثير في نفسي الخوف والقلق حتى بِتُّ أكره الرياضيات التي كانت أفضل المواد بالنسبة لي ... ولا أبالغ حين أقول إن صورتها ما زالت محفورة في ذاكرتي، فقد أطلت بوجهها الأسمر وشعرها الأسود الطويل وكانت تضع على عينيها نظارات كبيرة تثير الريبة والخوف ... وكانت المحصلة أن رسبت معها في أول امتحان رياضيات، وكانت تلك الصدمة الكبرى بالنسبة لي، وأعزو سبب فشلي في هذا الامتحان إلى أمرين؛ خوفي من المعلمة، وتغير أسلوب الشرح الذي اعتدت عليه في المرحلة الابتدائية.

ومن المواد التي لم تحظَ مني باهتمام في تلك المرحلة مادتا الجغرافيا والتاريخ، فقد كنت أدرسهما جيداً وأحصل على علامات عالية، ولكن كنت أرمي بالمعلومات من وراء ظهري

بمجرد انتهائي من الامتحانات، ولكني أشعر بالندم الآن لما لتلك المادتين من أهمية كبرى في حياتنا، وصقل شخصيتنا، وإظهار سعة ثقافتنا.

وتأتي المرحلة الثانوية وتقرير المصير ... فقد اختلطت مشاعري وتضاربت أفكاري ما بين البقاء في الفرع العلمي في المدرسة، أو الانتقال إلى مدرسة أخرى لدراسة الفرع الأدبي، فقد قررت إدارة المدرسة أن ألتحق بالفرع العلمي، ولكن قرارها هذا سبب لي التوتر والقلق وشعرت بالخوف الشديد، وعزمت أمري على الانتقال إلى مدرسة أخرى لدراسة الفرع الأدبي ... وفعلاً انتقلت وما هي إلا أيام حتى شعرت بغربة المكان ... وقررت العودة إلى مدرستي حيث يطيب لي المقام مع زميلاتي ومعلماتي ... وكان هذا قدري أن ألتحق بالفرع العلمي، وأن أكون من الطالبات النجيبات والمثابرات .. وقد كتب لي الله السداد بأن حصلت على معدل ممتاز في شهادة الثانوية العامة.

وهكذا طويت صفحات الكتاب الأول، وهو المدرسة بمراحله الثلاث، فقد كانت لكل مرحلة ميزتها وطابعها الخاص.

أنهيت دراسة الثانوية العامة، وقد شاء القدر أن أرتبط وأتزوج وأنجب. بالتالي لم تسنح لي الفرصة لإكمال تعليمي مباشرة، لكن لم تغب فكرة إكمال تعليمي عن بالي، فقد انتظرت الوقت المناسب لدخول الجامعة، وقد اخترت تخصص الصيدلة في بادئ الأمر، لكن سرعان ما غيرت رأيي، فقد فكرت كثيراً ووجدت أن أفضل تخصص يمكن أن يلائم ظروفي ويساعدني في تربية أبنائي هو تخصص التربية الابتدائية. وهذا ما كان فعلاً، فقد التحقت بالجامعة وأكملت تعليمي وتخرجت منها بفرح غامر لأني أحببت ما درست وآمنت به.

ويأتي دور الوظيفة والهواجس بالقبول والرفض والدور والامتحان الكتابي وغيرها ... فقد قدمت طلباً لمديرية التربية والتعليم في رام الله، وتقدمت لامتحان كتابي، وقد كنت مشغولة البال متوجسة من ذاك الامتحان، ولكن بحمد الله نجحت وكنت الأولى على كل المتقدمين بقيت عقبة أخرى هي المقابلة، توجهت إلى المقابلة في المديرية وكلي ثقة بنفسي، فقد تجاوزت الصعب، ولم يتبقَّ إلا القليل ... وبالفعل لن أذكر ما دار في المقابلة لأن العبارة الأخيرة التي قيلت لي كفيلة بتلخيص ما دار فيها، فقد قالوا لي: «نحن بحاجة لك ولأمثالك معنا في التربية والتعليم».

أيام قليلة وإذا بصديقتي تتصل لتهنئني بالتعيين، تضاربت مشاعري في تلك اللحظة: هل هو الفرح بأني حصلت على وظيفة أم الخوف من المسؤولية؟ ومع هذا وذاك توجهت إلى مدرستي.

جاءت اللحظة التي انتظرت أخيراً .. دخلت المدرسة بخطى ثابتة لكن المخاوف ساورتني وأسئلة كثيرة انهالت على رأسي: كيف سأدخل الصف؟ ماذا سأقول؟ كيف سأوصل المعلومة لطالباتي؟ ما هي الطريقة المناسبة في الشرح؟ كيف أضبط الصف وأحافظ على النظام؟ ... كل هذه الأسئلة بدأت تفرج شيئاً فشيئاً عندما دخلت الميدان ... فقد كانت المفاجأة أن الحب يصنع المعجزات .. فعلاً أحببت طالباتي ولم أصفهن يوماً إلا ببناتي ... نعم بناتي أحببتهن فعلاً، ولا أذكر أني ضايقت إحداهن يوما بكلمة، وإن فعلت سهواً فإني أسارع إلى مراضاتهن ... كما عملت على تعزيزهن وتشجيعهن بشتى الوسائل والأساليب ... عجيبة هذه العلاقة التي جعلتني أفعل المستحيل لأصنع منهن طالبات مثاليات ... قررت أن أنوع في أساليب التدريس، فقرأت كثيراً وتوجهت إلى مدارس أولادي الخاصة لأرى أساليب المعلمات هناك وأستفيد من تجاربهن ... والتحقت بعدد من الدورات ... وبالفعل نقلت التجربة إلى طالباتي وأفدتهن بكل ما استطعت ... ولم يتوقف الأمر على أساليب التدريس والتعزيز، وإنما بقيت على تواصل دائم مع أولياء الأمور لمتابعة الطالبات وخلق جو عائلي مريح لهن.

ومع هذا الجهد الذي بذلته، فقد آتى زرعي أكله، وحصدت ما زرعت، وكانت أفضل نتيجة بالنسبة لي هي حب طالباتي للرياضيات وتعلقهن بي، لدرجة أنهن أردن أن يحولن مادة الوطنية والفن والرياضة إلى رياضيات.

وقد أتحفنني برسائلهن البريئة المكتوبة على أوراق ملونة ومزينة برسوماتهن الجميلة، ولا أبالغ حين أقول إن حقيبتي تمتلئ يومياً بهذه الرسائل التي تعبر عن مدى حبهن لي ولمادة الرياضيات، وأنهن يتمنين أن يكن مثلي في المستقبل ... ذاك ما زرعته وهذا ما حصدته، أهنئ نفسي بهذا الإنجاز وأؤمن بأن التميز ليس له حدود، وسأظل أسعى جاهدة في سبيل الرقي بنفسي من أجل أن أوصل رسالتي السامية، وأخرّج جيلاً مثقفاً واعياً يثق بنفسه وبقدراته.

مدرسة بنات صفا الثانوية